مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

بحث
٥

العصر العباسى هو عصر الإسلام الذهبى للثقافة وامتزاج الأديان السماوية

إعداد

أ.د/ عبد الفتاح مصطفى السيد غنيمة
أستاذ تاريخ وفلسفة العلوم والتكنولوجيا
ورئيس قسم الفلسفة بآداب المنوفية

محكمة تصدرها كلية الآداب بالمنوفية

العدد التاسع والثلاثون — أكتوبر ١٩٩٩

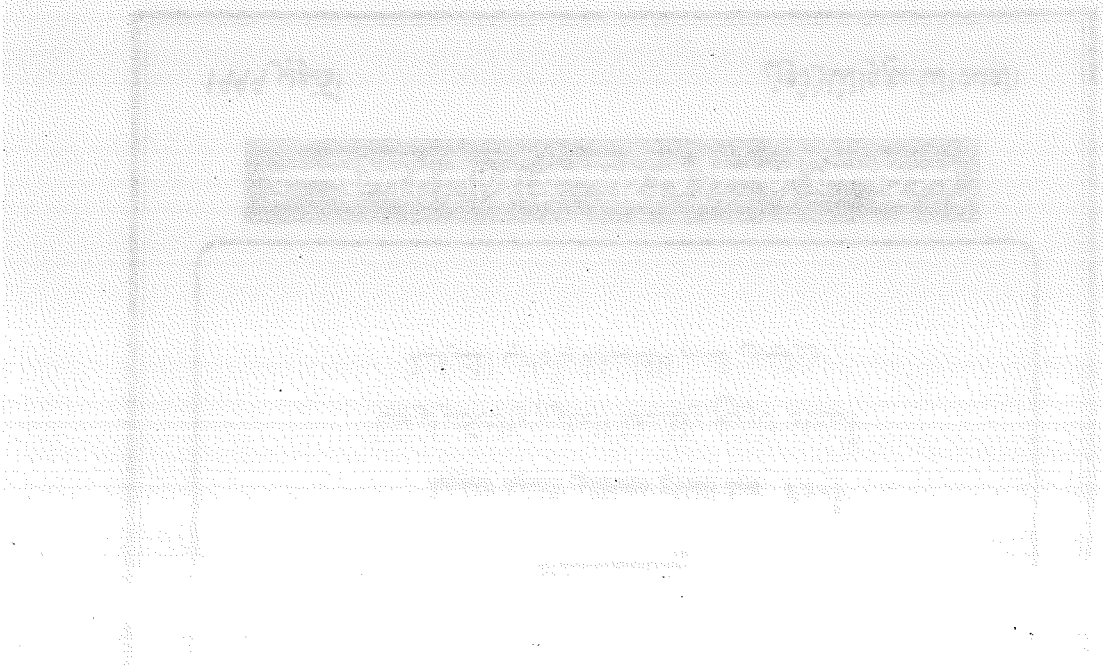

العصر العباسى هو عصر الإسلام الذهبى
للثقافة وامتزاج الأديان السماوية

- بعوث إلى مختلف بلاد العالم.
- العصر الذهبى للثقافة.
- حرية الفكر وحوافز البحث عند العرب.
- العواصم الإسلامية مراكز قيادية للعلم.
- علاقات دائمة لقاء مكتبة من القسطنطينية.
- بيت الحكمة فى بغداد.
- العلم دعامة أساسية للدولة الإسلامية.
- الحرية الفكرية وحرية المعتقدات.
- امتزاج الثقافات والأديان السماوية بالثقافة العربية
  - الثقافة الفارسية.
  - أما الثقافة اليونانية.
  - وأما الثقافة الهندية.
  - والديانتين اليهودية والنصرانية أثر كبير فى الثقافة الإسلامية.
- الصراع بين العرب والموالى.
- القرن الثالث الهجرى أزهر عصور العلم.

إعداد

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح مصطفى السيد غنيمة

أستاذ تاريخ وفلسفة العلوم والتكنولوجيا
ورئيس قسم الفلسفة بآداب المنوفية
ماجستير فى فلسفة العلوم الفيزيائية
دكتوراه فى فلسفة العلوم البيولوجية
ماجستير فى الفنون لتنمية الإنسان والمجتمع
دكتوراه فى التنمية الاقتصادية للسياحة
وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة العلم والحضارة
وعضو اللجنة القومية لتاريخ العلوم والحضارة

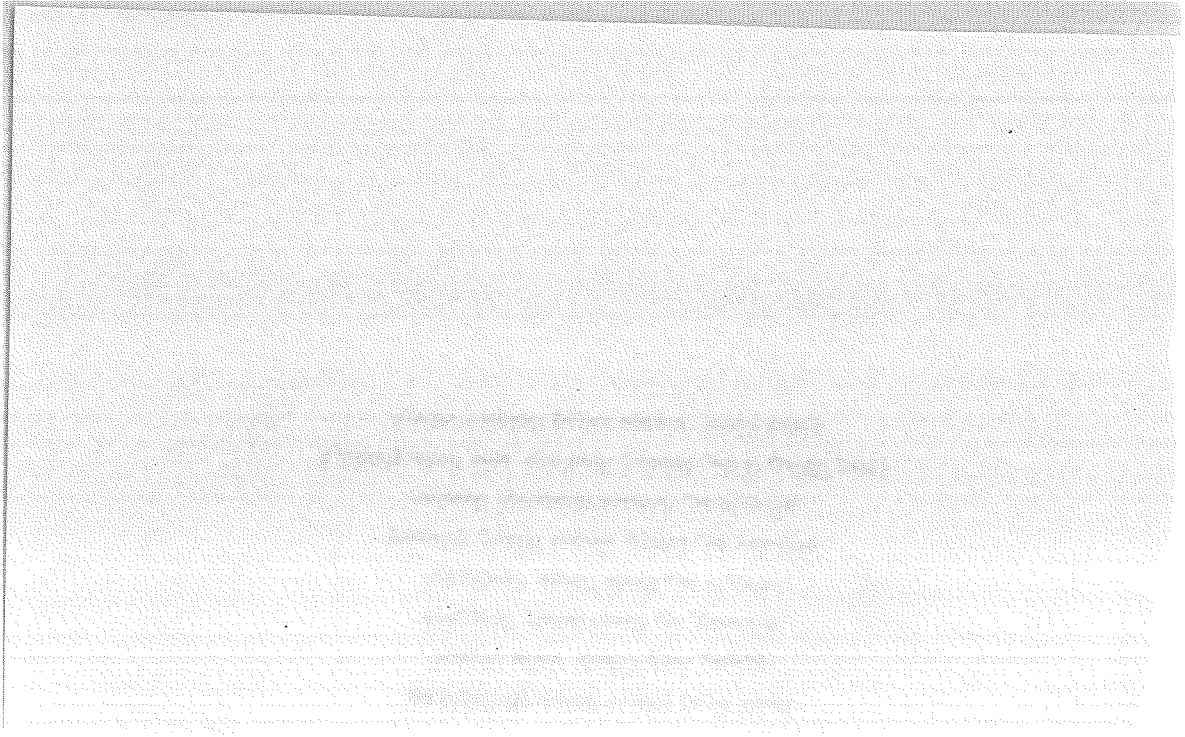

العصر العباسى هو عصر الإسلام الذهبى
للثقافة وامتزاج الأديان السماوية

كانت الدولتين الإسلامية والبيزنطية أعظم قوتين سياسيتين فى العصر الوسيط. فقد امتدت رقعة الإسلام من أطراف الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً، كما امتدت أرجاؤها شمالاً وجنوباً. واستطاعت الدولة الإسلامية فى أقل قرن من الزمان أن تؤسس أكبر وأقوى دولة عرفتها القرون الوسطى. انتصروا على الروم فى أجنادين عام ٦٣٤م ودخلوا دمشق عام ٦٣٥م وحققوا نصر اليرموك الرائع عام ٦٣٦م، وانتصروا على الفرس فى القادسية عام ٦٣٧م وخضعت لهم سوريا عام ٦٣٨م وجميع فارس عام ٦٤٢م ومصر عام ٦٣٩-٦٤٢م وأذربيجان عام ٦٤٢م وأفغانستان عام ٦٦١م وتونس عام ٦٧٤م وبخارى عام ٦٧٤م، والسند علم ٧٠٨م ومراكش عام ٧٠٨م وأسبانيا عام ٧١١-٧١٢م. وسمرقند وبخارى عام ٧١٢م، وفتحوا خلال القرنين الثامن والتاسع معظم جزر البحر المتوسط وأصبحوا سادة الدنيا بلا منازع وإذا نظرنا فى صفحات التاريخ نظرة موضوعية صرفة لاستطعنا أن نستوضح حقيقتين هامتين: **أولا:** أن الإسلام كان خطوة تقدم هامة وكبرى فى التخفيف على عاتق الشعوب الكثير من القيود والظلامات التى فرضتها الإمبراطورية الرومانية. **وثانيا:** أن الإسلام كان باعثا على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون فى حركة من أهم حركات تاريخ العلم.

والجدير بالذكر أن نقول:

ورث العرب عن الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية **ثلاث مدارس** هى **مدرسة جنديسابور** التى اختلطت فيها ثقافة اليونان وعلومهم بثقافة الهنود والفرس وعلومهم، ثم **مدرسة حران الوثنية**. وكانت مركزا للتأثر الإغريقى منذ عصر الإسكندر المقدونى. ثم **مدرسة الإسكندرية المسيحية المتأخرة**، على أن العرب لم يرثوا هذه المدارس فارغة، وإنما ورثوها بالعلماء والفلاسفة والمترجمين الذين كانوا يعملون بها، ولما كان الإسلام دينا واقعيا، حض المسلمين على الاستزادة من العلم ولم يضع أى عقبات فى هذا السبيل، كان طبيعيا أن تستمر هذه المدارس وأن تنشأ مدارس جديدة، وأن يستفيد المسلمون من هذه المدارس، وتبارى العلماء فى وضع حجر الأساس للحضارة العلمية الإسلامية، والحق أن طريقة اكتساب العرب للعلوم واستيعابهم لها وقصر المدة التى استغرقوها ليصبحوا قادرين على تصحيح هذه العلوم وإضافة جديد لم يسبقهم إليه أحد. أمور كانت فريدة فى التاريخ بعد جيل واحد أو جيلين من دخولهم دنيا العلم، تربعوا على عرشها وأصبحوا سادتها ويكفى القول أنه فى القرون الوسطى، كتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية، التى كانت فى منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله. حتى لقد كان ينبغى لأى كائن إذا ما أراد أن يلم بثقافة عصره، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية. ولقد فعل ذلك كثيرون ومن غير المتكلمين بها فى عصر النهضة.

وكانت الإمبراطورية البيزنطية آنذاك تبسط ظلها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا. ولم تكن الحروب هى العلاقة الوحيدة القائمة بين هاتين القوتين الكبيرتين، بل نشأت بينهما فى كثير من الأوقات علاقات مودة وسلام وفقاً لمصالحهما التجارية ولمقتضيات التوازن الدولى.

ولم تستمر سياسة الفتوح فى العصر العباسى كما كانت عليه الحال فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، لم تتسع رقعة الدولة الإسلامية، بل بدأت الحركات الانفصالية تعتريها فى أواخر هذا العهد، فكانت فى حاجة إلى الحفاظ على سلامة أرجائها أكثر منها إلى الاستمرار فى الفتح. ومن ثم كان أكثر حروب العباسيين ضد البيزنطيين وغيرهم فى العام الأول من عهدهم دفاعاً عن دولتهم، وكانت تلك الحروب هى الجانب السلبى للعلاقات السياسية. أما فى الجانب الآخر فقد اهتم العباسيون أكثر من الأمويين بتوسيع دائرة علاقاتهم الخارجية السلمية.

بعوث إلى مختلف بلاد العالم

وانطلاقاً من هذه السياسة سارت البعثات الدبلوماسية بين خلفاء بنى العباس وبين ملوك القسطنطينية وروما ومملكة البلغار ودولة الفرنجة والهند والصين، وعقدت بيزنطة مع بغداد معاهدات الصلح وتبادل الأسرى فى عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ)، والمأمون (١٩٨-٢١٨هـ) (٨١٣-٨٣٣م)، والمعتصم (٨٣٣-٨٤٢م)، وتبادلت معها البعثات فى مختلف الأغراض الرامية إلى توثيق الصلات التجارية، وتبادل الأسرى وفض المنازعات، وعقد المعاهدات. وكان دعم الروابط العلمية والثقافية من أهم ما استهدفته السفارات الإسلامية من أجل تعزيز علاقاتها مع جاراتها، مما يشبه المهمة التى يقوم بها الملحقون الثقافيون فى سفارات الدول الحديثة اليوم.

وهكذا اقترن عصر استقرار الدولة الإسلامية وازدهارها واتساع نفوذها وترامى أطرافها بازدهار البعوث العلمية بينها وبين الدولة البيزنطية. فتبادل الجانبان الكتب والرسائل التى كانت تصاغ فى أساليب أدبية، ثم دخلا فى مفاوضات أسفرت عن معاهدات لإقرار التبادل العلمى والثقافى. وكانت تلك المعاهدات تنص على دراسة الكتب النادرة التى تتوافر لدى الجانبين أو فى مكتباتهما العامة، وتبادل البعثات، وتيسير مهام الطلاب والباحثين فى جامعات المسلمين والبيزنطيين وفى عواصمهم.

ولا يستطيع من يؤرخ للعصر العباسى الإسلامى الذهبى أن يفصل ما بين عصرى الرشيد والمأمون فكلاهما فى الواقع متمم للآخر ومكمل له. وإذا كانت هذه النهضة العظيمة قد بدأت تزدهر فى عصر الرشيد فإن غاية ازدهارها قد بلغ مداه فى عصر المأمون بل امتد إلى عصر أخيه المعتصم أيضاً.

وقد عنى الرشيد ببناء القصور العامرة والمساجد والمستشفيات والمكتبات بأعلى ما وصل إليه فن الهندسة وصناعة الأثاث والذوق الجميل. وكانت بغداد قطعة من

الجنة المليئة بالبساتين والقصور والحمامات دليلاً على ما وصل إليه العصر من ترف ونعيم وتقدم وحضارة، ونتيجة لتكريم الخلفاء للعلماء ووضعهم في أعلا المراتب سواء علماء الدين أو علماء العلوم الدنيوية نزح إلى بغداد العلماء والأدباء والفنانين والفقهاء، فكانت المركز الأول في العالم كله للعلوم والفنون والآداب. وكان الرشيد مثلاً أعلى في تشجيع هجرة العلماء والأدباء، وأصبحت القصور منتديات للأدب وللشعر والغناء والتذوق الفني البديع. وقد عبرت "**ألف ليلة وليلة**" عن حقائق كثيرة قائمة فعلاً في قصر الرشيد وقصور الأمراء، وإن كانت قصصها من نسج الخيال، وكان بلاط الرشيد في عظمته وأبهته لا يقل عن إيوان كسرى وبلاط قيصر. وشهد عصره بداية النهضة العلمية وحركة النقل والترجمة من الفارسية والسريانية واليونانية، وكان الرشيد كلما فتح بلداً من بلاد الروم. طلب أثمن ما تحتويه المكتبات وأن ينقل فوراً إلى بغداد... فالترجمة هي همزة الوصل بين الثقافات، والجسر الواصل بين الحضارات والنافذة المفتوحة على تاريخ الشعوب. وبحركة الترجمة سجل العرب سابقة بوأتهم مكانة مرموقة في تاريخ الحضارة الإسلامية، فقد انكبوا على ثقافات الأمم الأخرى ينهلون منها بشغف كبير أيام كانت لهم السطوة والجاه، وكان حكامهم أشد الناس حرصاً على نقل العلوم وأكثرهم تواضعاً للعلماء والمترجمين، فقربوهم وأغدقوا عليهم الأموال حتى نقلوا في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون.

العصر الذهبي للثقافة

ولا غرو أن يطلق على فترتي هارون الرشيد والمأمون العصر الذهبي للثقافة والفكر، وأن تبلغ فيه النهضة الثقافية غاية ما بلغته طوال العصور الإسلامية. ولقد كان عصر الإحياء العلمي بحق، لأنه العهد الذي ارتفعت فيه أعلام الدول الإسلامية على كثير من أقطار العالم الغنية بالموارد، وساد فيه السلام الإسلامي مشارق الأرض ومغاربها. فقد امتدت حركة الترجمة التي بدأها الأمويون إلى جميع فروع العلم والمعرفة. ولم يألُ العباسيون جهداً في استقائها من مصادرها الأصلية والبحث عنها في منابتها القاصية.

وكان ولع المأمون بالعلم باعثاً له على تقريب العلماء منه وتشجيعه الكامل لهم يصلهم، ويغدق عليهم، ويجرى عليهم المنح والأرزاق، ويبالغ في تكريمهم ويبعث فيهم مزيداً من روح البحث، ويمدهم بكل ما يعينهم على تحقيق هذه الرسالة الرفيعة، رسالة العلم، ويفتح أمامهم أبواب خزائنه ومكتباته ودور الكتب التي جمع فيها كل ما أمكن جمعه من علوم الأقدمين. وطلب إلى أهل الرأى أن يجمعوا له أساطين العلماء وأعلامهم، فجمعوا له نحو مائة عالم، وبدأ المأمون يختبرهم ليصطفي منهم أعضاء مجلسه الخاص ومن يعتمد عليهم في البحث والتنقيب، ومن يجعلهم أعمدة النهضة التي عقد العزم على بعثها، ويقول الرواه أن اختياره وقع على عشرة منهم رأى فيهم القدرة والكفاية وأنهم يصلحون للريادة في المشورة والرأى.

وكان مجلس الخليفة المأمون يتكون من ممثلين لجميع الطوائف التى تدين بالخلافة، ويذكر المستشرق **دوزى Dozy** مبرهناً على حرية الفكر فى ذلك العصر، أى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية قصة نقلها عن أحد علماء الكلام العرب، يروى فيها كيف أنه كان يحضر فى بغداد دروساً كثيرة فى الفلسفة يشترك فيها يهود وزنادقة ومجوس ومسلمون ونصارى، وكيف أن الحضور كانوا يستمعون إلى كل منهم باحترام عظيم، وأنه لم يكن مطلوباً لأى منهم أن يستند إلا للأدلة الصادرة عن العقل، لا إلى الأدلة المستقاة من أى كتاب مقدس.

حرية الفكر وحوافز البحث عند العرب

تأصلت حركة الترجمة واتسعت بفضل حركة الفكر والتسامح الدينى التى اعتنقها المسلمون والتى كانت ديدنهم فى معاملاتهم مع غيرهم. فى عدم التمييز بين البشر بسبب العنصر أو اللون، وإنما عدالة ومساواة، تظل الجميع فى إطار الشرعية الإسلامية. ولا مراء فى أن علماء أوروبا فى العصر الوسيط أخذوا حرية الفكر عن المسلمين، فكانت أصول التربية الصالحة لنماء بذور الحضارة الغربية. ولولاها لما استطاعوا أن ينتزعوا راية العلم من رجال الكنيسة المتعصبين، ويطهروا عقولهم من رواسب المعتقدات الخرافية القديمة. كما أخذوا عن المسلمين دقة البحث العلمى فتمكنوا من تحقيق كشوفهم العلمية.

وفى ذلك يقول مؤرخ الحضارة جوستاف لوبون: "أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين"، ونجد مصداقا لهذه الحرية فيما قرره "دراير" Drayer أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة الأمريكيين: "أن المسلمين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى أعلى المناصب فى الدولة، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة "**يوحنا بن ماسويه**" توفى ٢٤٣هـ/٨٥٧م. وكانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأى وسعة الفكر من الخلفاء إلى النصارى تارة وإلى اليهود تارة أخرى. ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذى ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة".

ولقد بلغ اهتمام العباسيين بالثقافة حدا لم يسبق له مثيل فى تاريخ النهضات العلمية، إذ كانوا يعدون العلم مقوما رئيسيا لبناء الدولة والمجتمع. وقد شمل هذا الاهتمام العلوم الدينية والدنيوية على السواء، فشجعوا على ترجمة أمهات الكتب الأجنبية من مختلف اللغات، ولم يضنوا فى سبيل الترجمة والتأليف بجهد أو مال حتى يحيطوا علما بجميع ثمار الفكر البشرى سواء التاريخى منها أو العصرى. ومن ذلك ما أثر عن أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى من أن شجع "**مالك بن أنس**" المتوفى عام ١٧٩هـ على تأليف "**الموطأ**"، أول تدوين فى الفقه، فهو يجمع بين الحديث والفقه، كما شجع العلماء على التأليف فى العلوم والفنون. ثم أغرى المترجمين من السريان والفرس بالمال الجم لينقلوا من الفارسية والسريانية

واليونانية إلى العربية فنون الطب والهندسة والفلك. وكان هو نفسه ممارسا علـــوم الفلك، بارعا فيها.

إن الاشتغال بالعلوم الدنيوية فى عصر المأمون لم يكن أقل انتشارا وازدهـــارا من الاشتغال بالعلوم الدينية. وامتزج الاشتغال بالعلوم الدينية والدنيوية معا بحيـــث لا تجد عالما متخصصا فى علم بذاته، وهذه ظاهرة امتاز بها هذا العصر، فقد أدت حركة الترجمة دورها بنجاح منقطع النظير فأمدت العلماء بمادة غزيرة، ولم يجـــد طلاب العلم بدا من أن ينهلوا من هذه الحياض المتعددة، وازدهـــرت فـــى عصـــر المأمون حركات التأليف بجانب الترجمة فى نواحى الطب والفلك والفلسفة وشـــهدت فترته نهضة فكرية فى كل نواحى الحياة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ونظـــم الحكم، كما شهد هذا العصر اتجاهات فكرية فى الدين والعلم والفن حيث امـــتزجت الثقافات الوافدة. وتكونت ثقافة إسلامية جديدة فى نوعـــها ومناهجـــها وتطورهـــا. وبدأت النهضة العلمية تؤتى ثمارها وأصبح المجتمع الإسلامى منهل العلم والمعرفة ومصدر البحث العلمى.

العواصم الإسلامية مراكز قيادية للعلم

وتحفل كتب التاريخ بكثير من الشواهد الأخرى على اهتمام العباسيين بحركتـــى الإحياء العلمى والنهضة الفكرية حتى صارت كل من بغـــداد ودمشـــق والبصـــرة والكوفة والفسطاط "مصر" مراكز قيادة ومصادر إشعاع للتيارات العلمية والفكريـــة، يتزاحم عليها أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان، لينهلوا من مواردها الغزيـــرة. وكان عماد تلك الحركة جمع الكتب والمصنفات من خزائنها فى الدول المجـــاورة لتحصيل ما احتوته من كنوز علمية واستيعاب ما فصلته من نظـــم فـــى السياســـة والحكم والفلسفة والأدب وعلم الطب والطبيعة والفلك والهندسة وغيرها،والإفادة بها فى تطوير أجهزة الحكم الإسلامى. ولتحقيق هذا الغرض سارت أجـــهزة البعثـــات العلمية الإسلامية إلى بيزنطة، وقامت بزيارة مكتبات القسطنطينية لاستخراج الكتب النادرة التى يحتاج إليها المسلمون فى دراساتهم النظريـــة والفلســـفية أو تجاربـــهم الكيماوية والطبية على السواء وترجمتها.

ومن تلك البعوث ما أوفده الخليفة العباسى المنصور (توفى ١٥٨هـــ/٧٧٤م) إلى القسطنطينية، حيث عاد العلماء ومعهم مختارات من الكتب والمصنفات النـــادرة كان من بينها كتاب الأصول Elements أهم مؤلفات "اقليدس" والذى ظـــل مرجعـــا لأكثر من ألفى سنة. وجاء فى كتاب "الفهرست" لابن النديم المتوفى عـــام ٣٩٢ أو ٣٩٩هـــ، أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقـــد اســـتظهر عليـــه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى البحث عما يختار من العلوم القديمـــة المخزونة ببلاد الروم، فأجابه ملك الروم إلى ذلك بعد امتناع، فاخرج المأمون لذلـــك جماعة ، منهم "الحجاج بن مطر" و"ابن البطريق" و"مسلم" صاحب "بيـــت الحكمـــة" وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا وما اختاروا، فلما حملوه إليه، أمرهم بنقله وترجمتـــه، وقد قيل أن "يوحنا بن ماسويه" ممن سافر إلى بلاد الروم.

علاقات دائمة لقاء مكتبة من القسطنطينية

وكان المأمون ينتهج السبل الدبلوماسية لتحقيق بغيته، فوثق علاقاته بملك الروم، وأتحفهم بالهدايا الثمينة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما كان عنهم من كتب أفلاطون وأرسطو وابقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم. وليس أدل على جهود المأمون فى هذا الميدان من تلك الواقعة التاريخية التى تؤكد نظرته إلى الثقافة على أنها ركن من أركان الدولة ودعامة من دعائم السلام الإسلامى، وليست مجرد ترف عقلى، إذ كان من شروط صلحه مع الإمبراطور البيزنطى "ميخائيل" الثالث أن يعطيه مكتبة من مكتبات الأستانة، فكان ذلك، ووجد فيها كتاب "بطليموس" فى الرياضة الفلكية، فأمر بترجمته، وسماه "المجسطى". وترجم ثابت بن قرة (٨٣٦-٩٠١م) هذا الكتاب. ورأس لجنة لقياس قطر الأرض أيام الرشيد وأعطت القياسات رقما سليما لمحيط الأرض وطول نصف قطرها.

بيت الحكمة فى بغداد

مرت الترجمة إلى العربية فى دورين رئيسين: اقتصر الأول منهما على نشاطات فردية قام بها عدد من المترجمين كل على انفراد، أما الدور الثانى فقد برز فى شكل مؤسسة علمية جليلة أخذت على عاتقها النهوض بأعمال الترجمة وكل أمر يتعلق بها، هذه المؤسسة هى التى عرفت باسم بيت الحكمة فى بغداد والتى جمع المؤرخون على أن الخليفة هارون الرشيد هو الذى أنشأها.

ومن مآثر المأمون فى ميدان البحث العلمى أنه أضاف الكثير إلى إمكانيات بيت الحكمة فى بغداد، وجمع فى هذه المكتبة آلاف المخطوطات المترجمة عن الحضارات الإنسانية القديمة التى ورثها المسلمون، والمؤلفة من قبل الأدباء والعلماء العرب فى شتى العلوم والفنون. وقد قصد الباحثون والدارسون هذه الدار من مختلف الأمصار الإسلامية يأخذون عنها وينهلون منها. وبذلك انتقل العلم من الرواية إلى التأليف، ومن المشافهة والاستماع إلى البحث والاستقصاء. وازدهر الإنتاج الفكرى نتيجة لذلك فى أرجاء الوطن العربى فى شتى مناحى العلم والمعرفة.

وكانت الخطوة التالية بعد قيام دار الحكمة وتكوين المجمع العلمى الأدبى فى جزء من دار المأمون وانتشار دكاكين الوراقين. وهى مكتبات صغيرة منتشرة فى كل أسواق بغداد، كانت الخطوة التالية هى تحول المساجد إلى مدارس ومعاهد. وكانت المساجد منذ قيام الدولة الإسلامية دورا للعبادة وندوة للشورى فى كبريات المسائل ودورا للقضاء والفتوى، ثم أصبحت مدارس لعلوم الدين من فقه وتفسير وحديث ودراسة للأصول، ثم مدارس لدراسة اللغة وفروعها والنحو والشعر والأدب. فهى مراكز لنشر الثقافة الدينية والبحوث الأدبية فوق أنها للعبادة.

وكان الخلفاء العباسيون والأباطرة البيزنطيون يتنافسون فى انتزاع فضل السبق العلمى فى عصريهما، ولا يألون جهدا فى هذا السبيل. من ذلك أن الخليفة المأمون ومعاصره الإمبراطور "تيوفيل" كانا مغرمين بالشعر وروايته، ويهتمان بالمسائل الدينية. ولهذا عمل كل منهما على تتبع نشاط الآخر فى هذه الشئون وغيرها من المسائل العلمية كى يفوز عليه ويسبق بأمته دونه.

ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد تلك الرسائل والبعوث المتعددة والمفاوضات المتكررة التى دارت بين الإمبراطور "تيوفل" والخليفة المأمون فى شأن العالم الفلكى المهندس "ليو – Leo". وكان الخليفة المأمون يتوق إلى حضور هذا العالم الذائع الصيت إلى بغداد لفترة من الزمن للاستفادة من علمه الواسع فى الرياضيات. فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى بعثة خاصة من أجل ذلك، وقال فى رسالته الشخصية إليه أنه يعتبر ذلك عملا وديا. ووصل الأمر إلى حد أن عرض عليه صلحا دائما وألفى قطعة ذهبية فى مقابل حضور هذا العلامة إليه. ولكن "تيوفيل" لم يستجب لعرض المأمون، لأن أبحاث "ليو" كانت تتعلق فى شطر منها بأسرار الدولة وشئونها العسكرية. وحين نذكر قوة الدولة الإسلامية فى عهد المأمون وسعى الدولة البيزنطية إلى خطب ودها والدخول معها فى علاقات طيبة ندرك مبلغ سخاء هذا العرض من جانب المأمون، ومدى حرص "تيوفيل" على منافسة الخليفة فى البحث العلمى.

العلم دعامة أساسية للدولة الإسلامية

وتتجلى تلك النزعة العلمية التى تعد إحدى العلامات الواضحة المميزة للنهج الذى كان يسير عليه الحكم خلال عهود بنى العباس، والتى تؤكد اعتدادهم بالعلم كدعامة أساسية من دعائم دولتهم، وركيزة للإسلام فى الأرض، وعامل قوى لامتداد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم، وتتجلى هذه النزعة فى اهتمامهم البالغ بالعلوم الفلكية وبناء المراصد. ولعل فى هذا الاهتمام وفيما وصلت إليه مختلف العلوم فى عصرهم من نهضة مجيدة ما يشهد باستقرار دولتهم الذى مكن لهم من بسط سيادتهم على كثير من أصقاع الأرض.

وقد وضح الاهتمام بأهمية البعوث العلمية فى مختلف فروع المعرفة، فأكثر الخلفاء من إيفاد السفارات إلى القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية، لتزويدهم بالنظريات المستحدثة فى الميادين العلمية. وكانت علوم الفلك والرياضيات عند المسلمين فى بدء ازدهارها بحاجة إلى الإفادة مما بلغه البيزنطيون من تقدم فى هذا المضمار، فبعث الخلفاء العباسيون بكتبهم ورسلهم إلى أباطرة القسطنطينية، سعيا إلى عقد الاتفاقات الخاصة باستقبال البعثات العلمية الإسلامية الموفدة لديهم والعمل على تحقيق أغراضها. كما نشأ تبادل السفارات العلمية بين الدولتين، الإسلامية والبيزنطية، مما ساعد على استمرار التعاون فى تحقيق المصالح المشتركة فيما بينهما.

ولا ريب فى أن العرض السخى الذى اقترحه المأمون على الإمبراطور "تيوفيل" بشأن دعوة العالم "ليو"، لينهض دليلا قويا على إدراك الخلفاء المسلمين لأهمية البعوث العلمية فى دعم دولتهم وتوطيد أركانها، وتوفير أسباب الأمن والاستقرار لها.

هذا وقد تجاوزت البعوث العلمية الإسلامية إلى بيزنطة هذا الغرض الذى يتمثل فى طلب المصنفات القيمة ودعوة العلماء إلى غرض علمى آخر، وهو دراسة الأماكن التاريخية والمواقع الأثرية التى تتعلق بأحداث الإسلام، أو بما ورد ذكره فى القرآن الكريم ومن ذلك بعثة العالم العربى، المشهور "محمد بن موسى" الذى بعث به الخليفة العباسى الواثق (٨٤٢-٨٤٧م) إلى "أفسوس" بآسيا الصغرى من بلاد الروم لزيارة الكهف الذى يقال أن فيه رفات الفتية الذين استشهدوا أيام الإمبراطور "اقلديانوس" والذين ورد ذكرهم فى القرآن الحكيم فى سورة الكهف:"أم **حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا. إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا**"...الآية ١٠.

وقد منح الإمبراطور البيزنطى "ميخائيل" الثالث البعثة الإسلامية تفويضا خاصا لزيارة الكهف، وبعث معها دليلا خاصا لإرشادها فى تجوالها. وقد وصف سفير الخليفة مشاهداته وانطباعاته عن أهل الكهف، فقال: "عندما وصلنا إلى المدينة شاهدنا جبلا يؤدى إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم - اللوح الذى رقمت فيه أسماؤهم بعد موتهم -، فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته، فإذا بئر محفورة لها سعة، وتبينا الماء فى مقرها، ثم نزلنا إلى باب السرداب، فمشينا مقدار ثلاثمائة خطوة، فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه، فإذا رواق فى الجبل.. وفيه عدة أبيات، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة، عليه باب حجر منقور، فيه الموتى، ورجل موكل بحفظهم. وإذا هو يحيد عن أن نراهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم!! فقلت له: دعنى أنظر إليهم وأنت برئ. فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى. فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد. وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم".

كما نظم الخليفة الواثق بعثة كبيرة يرأسها أحد كبار مترجمى الدولة لاكتشاف السور الذى بناه الاسكندر ذو القرنين، وتقول الرواية أنه سد بين الروم وبين يأجوج ومأجوج الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى سورة الكهف: "**حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا**"...الخ. الآية ٩٤.

وقد دامت البعثة التى أوفدها الواثق ثمانية وعشرين شهرا. فلما عاد أعضاؤها كافأهم الخليفة على ما حصلوا عليه من بيانات.

العصر العباسى عصر التأليف والترجمة والتدوين

لقد كان المسلمون فى أواسط القرن الثانى الهجرى يتدارسون علوما كثيرة، منها الشرعية، ومنها اللسانية، ومنها الكونية. وكان اعتمادهم فى مدارستهم على التلقى والمشافهة. وكان بعض طلاب العلم يقيدون ذلك بالكتابة لتكون تذكرة لهم إذا ما طغى على عقولهم النسيان. وكانت الحافظة عندهم هى المرجع الأول وعليها المعول، فلما أنشئت مدينة بغداد وأصبحت مقر الخلافة الإسلامية أقبل أهل الفضل إليها، وأمها العلماء من كل صوب، وجعلوها دار إقامتهم، فأصبحت بذلك موئل العلوم الإسلامية ومجتمع الفنون الأدبية وملتقى الثقافات المختلفة، فزخرت بالنور وازدهرت بالعرفان، وأينعت فيها ثمار العقول، وصارت منار الحاضر ومحط رحال العلماء والفضلاء.

والحق أن تاريخ بغداد السياسى والاجتماعى والأدبى يعتبر ــ إلى حد ما ــ تاريخ العالم الإسلامى فى خلال حقبة من الزمان لا تقل عن خمسة قرون. ولا مراء فى أنه لم تصل مدينة من مدن الإسلام فى تلك العصور الخالية إلى ما وصلت إليه بغداد من سعة العمران وعظم الآثار. كما أنه لم تصب مدينة منها بما أصيبت به بغداد من الكوارث والجوائح. فكما تضافرت الأيدى على عمرانها ورفعة شأنها، تضافرت الخطوب والعوادى على تمزيق أوصالها وطمس معالمها، حتى لم يبق من رسومها اليوم أثر يمكن أن يهتدى به الباحث المنقب إلى تعيين المواضع التى كانت تقوم عليها تلك القصور الشاهقة والمبانى الشامخة والمساجد الجامعة والمدارس العظيمة التى كانت تملأ سمع الزمان وبصره، اللهم إلا بعض أطلال لا تزال ماثلة .

وقد أخذ الخلفاء والأمراء بناصر العلم والعلماء، اشتد ولعهم بنقل العلوم الأجنبية وتدوين العلوم الدينية، فاكتظت بغداد بالنابغين فى علوم الدين، والعباقرة فى العلوم اللسانية، والمبرزين فى فنون السياسة والحرب. وكان كل من تفرد بضرب من ضروب المعرفة يلقى من الخلفاء ألوانا من الإكرام وضروبا من أشكال المنح والعطايا.

وفى هذه الفترة نبغ أئمة المذاهب الأربعة، ودون مذهبا أبى حنيفة ومالك، وزار بغداد الإمام محمد بن إدريس الشافعى مرتين، وفيها أملى مذهبه القديم، ولقيه فيها الإمام أحمد بن حنبل ولقح مذهبه بآرائه، وقد أخذ عن ابن حنبل الكاتب الأديب ابن قتيبة.

وفى هذه الحقبة تم تدوين الحديث واللغة والشعر والتاريخ، وظهر عظماء القراء، ونهضت حركة الترجمة نهوضا مباركا فغزرت العلوم الكونية الفكر العربى وصقلته، وظهر الأثر فى جميع نواحى الحياة العباسية. وكان الخلفاء ــ وبخاصة المأمون ــ يشجعون هذه الحركة بكل ما أوتوا من قوة، ويرسلون البعثات إلى البلاد الأجنبية ليستحضروا الكتب، فيتلقفها المترجمون وينشروها بين الناس

بالعربية، وكانوا يغدقون العطايا لهؤلاء المترجمون حتى ليقال "أن المأمون كان يعطى حنين ابن إسحاق (١٩٤-٢٦٤هـ) (٨٠٩-٨٧٧م) من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل".

وكان خلفاء بنى العباس فى عصرهم الأول يجلون العلماء ويحتفون بهم. وقد سهلوا نزوحهم إليهم، وأجروا الأرزاق عليهم، وبالغوا فى إكرامهم، وقربوهم، وجالسوهم، وآكلوهم، وحادثوهم وعولوا على آرائهم، فلم يبق ذو قريحة أو علم إلا اتجه إلى بغداد. والعلم لا يزدهر إلا فى ظل حاكم يشغف به ويأخذ بأيدى أهله. وهؤلاء الخلفاء كانوا من أكثر الملوك رغبة فى العلم، ولهذا عنوا – إلى جانب ما ذكرنا – بإنشاء خزائن الكتب ودورها، وكان لهذه الدور شأن كبير فى نشر العلم والمعرفة، ويقول المستشرق الأستاذ جويدى : "من الأمور التى أحيت العلوم فى الأمة العربية إقامة بيت الحكمة فى بغداد. وكان فى تلك الدار خزانة كتب قيمة يجتمع فيها علماء ذلك العصر للدرس والبحث والذاكرة. وكان "**علان الشعوبى**" ينسخ من تلك الخزانة كتبا للرشيد والمأمون والبرامكة. وكان **ابن أبى الحريش** يجلد هذه الكتب وهو معروف بهذه الصناعة ".

ومما ساعد على تقدم العلوم التنافس بين العرب والروم . فقد أنشأ الروم فى ذلك العصر مدرسة تشبه بيت الحكمة فى القسطنطينية ، وكان ملك الروم "قسطنطين الثانى" محبا للعلم ، ومشجعا لأهله .

وقد تنافس الأمراء وعلية القوم فى اقتفاء أثر الخلفاء فى خدمة الأدب والعلم ، والناس – كما يقولون – على دين ملوكهم ، فأنشأوا خزائن الكتب فى قصورهم ، وسعوا ما وسعهم السعى إلى جمع الكتب ، مجزلين العطايا لكل من ينقل لهم ضربا جديدا من المعارف . ومن أشهرهم بنو موسى بن شاكر ، محمد وأحمد والحسن ، ويقول عنهم ابن خلكان : " وكانت لهم همم عالية فى تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل . وكذلك آل بختيشوع ، وآل حنين بن إسحاق وآل الكرخى وإسحاق الموصلى وغيرهم .

وقد أدرك القوم أن كل عز لم يسند بعلم كان مآله الانحلال ، فأكبوا على العلوم والآداب ، ينهلون من بحارها ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وأصبح التعليم صناعة ، فرخت عيشة المؤدبين ، وغدا التأديب والتعليم طريقا إلى المجد والسؤدد وسبيلا إلى مؤانسة الخلفاء ومسامرتهم . وقد عمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء بمثابة حصون للمفكرين وحملة الأشعار والأخبار.

وقد نهضت العلوم اللسانية نهوضا حثيثا فى ذلك العهد ، ولاشك أن الدافع الأول لوضع هذه العلوم هو الدين . ذلك أنه لم تفشى اللحن فى اللغة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم جزع الأئمة وذوو النعرة العربية من هذا اللحن وأشفقوا على القرآن أن يستغلق فهمه على الناس ، فهبوا لمحاربة هذا الوباء بالحض على التعلم وتجويد حفظ القرآن والسنة وتدوين علوم اللسان من لغة ونحو.

وقد شد الخلفاء ورجال الدولة أزر هذه النهضة حرصا على الدين الذى كان مظهرهم الأكبر ، فحشدوا فى قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم ، فكانوا أمراء الكلام والبلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة الدولة . وقد عرف الناس منهم ذلك فتقربوا إليهم بالعلم والأدب ، ولم يعز على من فاته شرف الحسب والسلطان أن يتجه إليه بالعلم والأدب ، فنبغ فيهم الكثير وقد كان نشاط المسلمين وتنافسهم فى هذه الناحية يستثير الإعجاب ، وكانوا يتسابقون فى تدوين العلم وتنظيمه تسابق آبائهم فى الفتوح والغزوات .

ومن المحقق أن أول ما دون ــ بعد القرآن طبعا ــ هو كتب الحديث والفقه وأصوله ، ثم جاء النحو وعلوم العربية بعد ذلك .

وكانت هذه العلوم قبل ذلك العهد مختلطة غير مرتبة، "فكان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة" كما يقول السيوطى .

أما فى العصر العباسى فقد دونت هذه العلوم واتخذت شكلا آخر من حيث الترتيب والتبويب والقياس عليها . ووجدت بجانبها علوم أخرى دنيوية كالمنطق والفلسفة والرياضة والطب والهيئة والكيمياء .

والحق أن العلوم العربية كلها تقريبا قد وضعت أسسها فى العصر العباسى الأول ، وبعضها تم بناؤه فى هذا العصر . وكذلك ترجمت علوم الأمم الأخرى ــ كما ذكرنا ــ وتمثلها المسلمون ، وبدأ علماؤهم بعد ذلك يؤلفون فيها. وقد ظل المسلمون فترات طويلة يعتمدون فى حياتهم العلمية على تلك العلوم التى وضعت فى هذا العصر .

وكان مما ساعد على تنشيط هذه الحركة العلمية والنهوض بها صناعة الورق واتساعها، ويقال أن البرامكة هم الذين أشاروا بعمل الكاغد "الورق" لنسخ أسفارهم . ثم أمر الرشيد ألا يكتب الناس إلا فى الكاغد ، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة ، فتقبل التزوير ، وانتشرت الكتابة فى الورق إلى سائر الأقطار، وكان لظهور الورق فضل وجود الكتب وخزائنها ، كما كان له فضل فى قيام صناعة "الوراقة" . وكان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها ، وكان كثير من العلماء يذهبون إلى دكاكين الوراقين ويقرؤن ما فيها من كتب ، واشتهر منهم الجاحظ .

وليس من شك فى أن العلوم قد اتخذت لونا خاصا فى ظلال العباسيين ما كانت لتتخذه لو بعثت فى عصر غير هذا العصر باستثناء العلوم التى كان مقياسها العقل الخالص كالمنطق والرياضيات وما شابهها. وكانت هذه العلوم تنتشر فى الآفاق بوسائل عدة أهمها الكتاتيب والمساجد. وكان بالمساجد حلقات لمختلف العلوم. وكانت وسائل نشر العلم أيضا مجالس المناظرة فى القصور والدور ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء والولاة يشجعون هذه المناظرات ماديا وأدبيا ، وأحيانا

يشتركون فيها . وقد عقد السيوطى فصلا عن "المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات" أورد فيها الكثير منها . ومن أهم الوسائل "المكتبات" وأعظم مكتبة ظهرت فى العصر العباسى مكتبة "بيت الحكمة" التى أشرنا إليها فيما قبل.

وقد انتشرت إلى جانب ذلك مجالس اللهو والشراب ، وكان يغشاها الأدباء والشعراء وأرباب الفنون ، فكانت هى الأخرى ينبوعا للشعر وما يتبعه من لطيف الملح وطريف الأفاكية. وقد أخذ الناس يتمززون طعم الحياة وينعمون بمباهجها ، وأضحى رجال الدولة ومن والاهم يغشون مجالس الغناء والموسيقى والطرب وأصبحت معظم الطبقات تألف ذلك من غير حرج .

الحرية الفكرية وحرية المعتقدات:

ولقد ساعد على تنوع الثقافات الحرية الفكرية التى أظلت العقول فى ذلك الحين نتيجة امتزاج العنصر العربى بغيره من العناصر الأجنبية الأخرى وبخاصة فى زمن المأمون. وكان المأمون يترك للناس حرية المعتقدات مهما كان فيها من زيغ ومروق . وكان يؤتى بالمارق يمثل بين يديه فيجادله بالتى هى أحسن حتى يهديه سواء السبيل. وقد قال للمرتد الخراسانى: لأن أستحييك بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق، ولأن أقبلك بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة . وأخذ يحاوره حتى أقلم عليه الحجة، فأناب المرتد إلى الله عن عقيدة وإيمان.

وكان المأمون يسهم فى المناظرات الدينيه ويحاور الفقهاء فى كثير من الامور. وكان يأمر قاضى قضاته **يحيى بن أكثم** أن يحضر معه رجالا يحسنون الفقه والجواب ، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه ، وعليه سواده وطيلسانه وعمامته ، فإذا استقر بهم المجلس تحدر عن فراشه ونزع عمامته ووضع قلنسوته، وما كان يمنعه من خلع خفيه إلا العلة، ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالسهم ويقول لهم : "إنما بعثت لكم معشر القوم للمناظرة" ثم يلقى عليهم مسائل الفقه ويرد على كل واحد منهم . وكان يخيرهم أن يسألوه أو يسألهم . ويؤثر عنه أنه كان يجل علماء اليهود والنصارى ، ويحتفى بهم فى مجلسه لعلمهم وثقافتهم فى لغة العرب وحذقهم لغة اليونان والسريان.

والحقيقة أن المأمون كان يرمى من وراء هذه المناظرات كلها إلى اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين . وكان يكره فى المناظرات إلى ما كان يبتغيه ، فلم ير بدا من الاستعانة بسلطانه فى إقامة ما يراه الحق ، ولاسيما مسألة خلق القرآن. وقد بلغ من تمتع القوم بهذه الحرية أن المجوس كانوا يعارضون علماء المسلمين، وقد ذكر الجاحظ بعض هذه المعارضات فى كتاب الحيوان.

والحق أن هذه الحرية الفكرية التى أباحها المأمون للناس جميعا كانت سببا فى تشتيت العقائد وكثرة الفرق بين المسلمين . فبعد أن كانوا لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم حتى أصبح الإنسان يحار فى كثرة الفرق ، ما بين حديثى

ومعتزلى وشيعى وزيدى ورافضى وجبرى ومرجئى وعثمانى وجهمى .. الـــخ ، فضلا عن المارقة والدهرية وأشباههما . وكان المأمون نفسه شيعيا ، وله فى ذلـك مظهر عملى معروف ذكره المؤرخون ، وربما تعددت المذاهب بين الأخـوة فـى البيت الواحد مثل أولاد أبى الجعد ، وكانوا ستة ، منـهم اثنـان شـيعة ، واثنـان مرجئان ، واثنان خارجيان. مهما يكن من شئ فقد تمتع الناس فى زمن المـأمون بحرية فكرية ودينية لم ير لها مثيل فى أى عصر من عصور الإسلام.

وقد كان من أثر اختلاف السكان فـى الدولـة الإسـلامية وتبـاين أصولـهم وأجناسهم، وامتزاجهم بالسكنى والزواج وغير ذلك ، ودخول كثير من أفراد الأمـم الأجنبية فى الإسلام ، ونمو الحضارة نموا يتطلب دراسة واسعة بكثير من شـئون الحياة من هندسة وطب وفلك ونظام وحكم وسياسة ولغة وأدب ، كان أثر ذلك كلـه أن انتشرت فى الدولة ثقافات مختلفة لأمم مختلفة . وكـان لكـل ثقافـة رجالـها البارزون الذين يحاولون جهدهم نشرها والترويج لها .

وكان من مظاهر هذا التنافس أن أخذت كل ثقافة تشق لنفسها طريقا تسير فيه . ولكن هذه الثقافات جميعا أخذت تلتقى رويدا رويدا وتمتزج بالثقافة العربية ، وقـد تكون من مجموعها ثقافة كبرى ذات لون خاص ، قد صبغت الصبغة الإسـلامية ، وهى ما يعرف "**بالثقافة الإسلامية**".

امتزاج الثقافات والأديان السماوية بالثقافة العربية :

وهذه الثقافات التى اتصلت بالثقافة العربية ثلاث : **الثقافة الفارسية ، والثقافـة اليونانية ، والثقافة الهندية** ، يضاف إلـى ذلـك الثقافـات الدينيـة **كاليهوديـة والنصرانية** .

وقد أقبل رجال هذه الثقافات الأجنبية على اللغة العربية فحذقوها حذقـا يدعـو إلى الإعجاب الشديد . ويحكى الجاحظ عن موسى بن يسار الأسـوارى ــ وهـو قصاص فارسى الأصل أنه "كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته الفارسية فـى وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عـن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثـم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يتضح بأى اللسانين هو أبيـن"، وهذا مثل له نظراء كثيرون . ونحن نجد بين علماء المسلمين رجالا من كل جنـس ونحلة قد أخذوا بحظ وافر فى جميع نواحى العلم . ولعل أعظم الأجناس أثرا فـى الحياة العباسية الفرس .

أثر الثقافة الفارسية:

فى الثقافة الإسلامية نجد الكثير من أثار الثقافة الفارسية من نواحيها المختلفـة. وأظهر ذلك الألفاظ الفارسية التى تسربت إلى اللغة العربية . وكان الفرس يدلـون على العرب بما أخذته العربية من الفارسية . وقد نقلوا كثيرا من تراث آبائهم إلـى

العربية ، ويقول ابن النديم : "أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان. ونقلته العرب إلى اللغة العربية" .

هذا إلى أن كثيرا من العرب عكفوا على تعلم الفارسية ، وقد نضح ذلك على ثمار قرائحهم وأقلامهم ، حتى الشعراء نراهم يدرسون الفارسية ويتقنونها، وأوضح مثل لذلك العتابى الشاعر العباسى المعروف وهو عربى من تغلب، وقد سأله رجل: "لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعانى إلا فى كتب العجم والبلاغة، اللغة لنا والمعانى لهم" . وليس هناك من ريب فى أن إلمام ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) بالفارسية كان من الأسباب التى جعلت كتبه على شئ من الترتيب والتنسيق .

ومن أبرز آثار الفرس أن الكثير من عاداتهم قد تغلغلت فى المجتمع العباسى تغلغلا شديدا وبخاصة ما يتصل بالغناء واللهو والشراب .

وهناك لون آخر من الأدب كان للفرس أثر كبير فيه وهو باب "التوقيعات" وقد أعجب بها العرب ، لأن الإيجاز من خصائص البلاغة العربية . وقد اهتم وزراء بنى العباس وكتابهم بأمر التوقيعات ، وكأنما نزغ فيهم عرق من آبائهم ، فأنشأوا لها ديوانا سموه "ديوان التوقيع" .

هذا إلى أنه قد ترجم إلى العربية من أمثال العجم وحكمهم ، وقد أورد الثعالبى قدرا كبيرا منها فى كتاب "خاص الخاص" ويشير ابن قتيبة فى مواطن متعددة من كتابه "عيون الأخبار" إلى المعانى التى اقتبسها الشعراء والخطباء من حكم الفرس. وهذا الكتاب من خير الكتب لخاصة الناس وعامتهم كما أنه مظهر راق لامتزاج الثقافات فى العصر العباسى.

ويرى أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م) أن الكتب التى عرفت فى العربية باسم "**المحاسن والمساوئ**" أو "**المحاسن والأضداد**" كان محاكلة للكتب الفارسية التى عرفت باسم "شايد وناشيد" أى "ينبغى ولا ينبغى" أو "شايسته وناشايسته" أى "اللائق وغير اللائق" ويلاحظ أن حملة العلم فى المسلمين كان أكثرهم من العجم فى ذلك العصر مثل أبى حنيفة وحماد الراوية وخلف الأحمر وسيبويه والكسائى والفراء وأبى عبيدة وأبى العتاهية وبشار بن برد والجاحظ وابن قتيبة .. وغيرهم وغيرهم.

أما الثقافة اليونانية:

فكانت مستفيضة فى بلاد الشرق بعد فتوح الاسكندر ، وقد وجد العرب فى أول يقظتهم مستودعا لآثار اليونانيين ، وقد نقلوا فى العصر العباسى أهم ما وصل إليه العقل اليونانى ، كتآليف أرسطو ، وبعض مؤلفات أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس فى الطب ، ورياضة فيثاغورس. وهندسة إقليدس.. وغيرها...الخ. وقد ظلت الإسكندرية عاصمة مصر اليونانية زمنا غير قصير، منهل الوارد من طلاب العلم والثقافة . وكانت المدرسة التى أنشأها كسرى الأول سنة ٣٥٠م فى جند يسابور

تنشر فى الشرق علوم اليونانيين ، وتستجيب لرغبة القوم فى تذوق الفلسفة والطب، حتى لقد قيل أن الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب تلقى علم الطب قبيل الإسلام فى هذه المدرسة التى ظلت تؤدى عملها فى العصر العباسى.

وكانت حران فى بلاد ما بين النهرين ذات حضارة يونانية ، وكان أهلها ينصرفون خاصة إلى الرياضيات والفلك ، واشتهر منهم فى العصر العباسى ثابت بن قرة وابن سنان الطبيب والعالم، وأبو إسحاق الصابئ صاحب الرسائل .

وليس من شك فى أن علماء الكلام قد اتصلوا بالكتب اليونانية التى ترجمت إلى العربية ، وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ليدعموا حججهم أمام خصومهم ، كما كان يفعل اليهود والنصارى الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية قبلا . ثم أصبح المسلمون يطلبون هذه الفلسفة للذة العقلية بعد أن كانوا يطلبونها للدفاع عن أنفسهم.

وكان للثقافة اليونانية أثر كبير فى العلوم الإسلامية فى الشكل والموضوع على حد تعبير المرحوم أحمد أمين . أما فى الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليونانى الذى لون العلوم بلونه الخاص ، وكان ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ) (٩٨٠-١٠٣٦م) يسميه "خادم العلوم" ، أما فى الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين.

وقد أثرت البلاغة اليونانية فى البلاغة العربية ، وعرب كثير من الألفاظ اليونانية، ونقلت قصص يونانية إلى العربية . وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب كثيرة فى الأسمار والتاريخ ترجمت إلى اللسان العربى . ونحن نقرأ فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد والفريد وغيرها كثيرا من حكم فلاسفة اليونان . ولاشك أن تمثل وهضم الثقافة اليونانية أنجب إخوان الصفا والفارابى (٢٥٩-٣٣٩هـ) (٨٧٢-٩٥٠م) وابن سينا وابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ) (١١٢٦-١١٩٨م) وأمثالهم.

وأما الثقافة الهندية:

فقد وصلت إلى العرب عن طريق الفرس ، وربما كان أهم ما عرفه العرب منها الإلهيات [ويراد بها الدين ممتزجا بالفلسفة] ، والحكم ، وبعض الرياضيات ، وشيئا من الأدب والفن. وقد تأثرت بعض الفرق الدينية الإسلامية بالدين الهندى ، وأخذوا عنه فكرة **تناسخ الأرواح** التى تأثرت بها كثير من الديانات السماوية وغير السماوية . ولاشك أن **التصوف اتصال بمذاهب النساك فى الهند** . ومكانة التصوف فى الأدب العربى نثره ونظمه لا تحتاج إلى تبيان .

وكان فى بغداد أطباء هنود إلى جانب أطباء اليونان والروم والفرس ، مثل "صالح بن بهلة الهندى" و"بازيكر" و"قلبرقل" وغيرهم .

وقد اندمج الهنود عقب الفتح الإسلامى فى المسلمين ، واعتنق كثير منهم الإسلام ، وأقبلوا على تعلم العلوم الإسلامية ، ونبغ فيها بعضهم ، وظهر فيهم وفى أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدثون ، منهم عطاء السندى ، وابن الأعرابى ، وأبو معشر نجيح السندى ، وفتح بن عبد الله السندى الفقيه المتكلم . وقد ترجم إلى العربية كثير من كتب الهنود ، وبخاصة ما يتصل بالكواكب والفلك .

وقد عربت ألفاظ هندية كثيرة ، وبخاصة أسماء النباتات ، ونقلت إلى العربية آراء لهم فى البلاغة، ذكر الجاحظ طرفا منها ، وهى تدل على أن تعريفهم للبلاغة يقرب من تعريف العرب لها ، وقد أولع العرب بالقصص الهندى ، ومن المحقق أن كثيرا من أصول "**كليلة ودمنة**" هندى ترجم إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية مع زيادة على الأصل الهندى . ويرجح ابن النديم أن قصة "**السندباد البحرى**" هندية . وقد نقل العرب كثيرا من حكم الهند ، وتجد قدرا كبيرا منها فى "عيون الأخبار" وكثيرا ما تقرأ لابن قتيبة هذه الجملة "وقرأت فى كتب الهند" وقد أشار ابن قتيبة إلى بعض المعانى التى اقتبسها الشعراء من الهنود .

ولا ريب فى أن العرب قد اتصلوا بالهنود قبل الإسلام ، ولذلك نراهم يطلقون على كثير من نسائهم اسم "هند" وكان خير السيوف وأمضاها يجلب من الهند ، ولذلك يقال عن بعضها الهندى والمهند والهندوانى .

وللديانتين اليهودية والنصرانية أثر كبير فى الثقافة الإسلامية:

والمعروف أن الإمبراطورية الإسلامية كانت تضم عددا غير قليل من أهل الكتاب ينعمون بحرية العمل والعبادة ، وقد أثرى كثير منهم وخالط المسلمون هؤلاء واتخذوهم أصدقاء ولبعض الشعراء المسلمين شعر يمدح فيه النصارى واليهود ويذكر لهم خلالا كريمة.

وقد تسرب إلى المسلمين شئ كثير من ثقافة هاتين الديانتين . ولعل أهم منبع لهذه الثقافة **التوراة والإنجيل**، وهما كتابان سماويان اعترف بهما الإسلام وورد ذكرهما كثيرا فى القرآن. وقد استفاد العرب كثيرا فى قصصهم من أهل الكتاب وممن أسلم منهم ، وبخاصة ما يسمونه العلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم السالفة .

وأكثر ما تأثر بالثقافة اليهودية: هذه المسائل التى وردت فى القرآن الكريم ولها نظير فى التوراة ولاسيما قصص الأنبياء، فقد كان علماء التفسير يضيفون إلى شروحهم ما ذكر فى التوراة وغيرها من الكتب اليهودية ، يعينهم على ذلك اليهود أنفسهم أو من أسلم منهم ، ومن أشهرهم عبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وكعب الأحبار الذى أسلم فى خلافة عمر ، ووهب بن منبه وغيرهم.

كما أن المسلمين عنوا بتاريخ بنى إسرائيل وأنبيائهم ، كما فعل ابن قتيبة فى كتاب المعارف والطبرى فى تاريخه .

وكان لليهود أثر واضح فى بعض المذاهب التى ظهرت فى الإسلام . ويقال أن أول من تفوه بكلمة خبيثة فى الاعتقاد فى الإسلام هو "**الجعد بن درهم**" مؤدب مروان بن محمد ، وقد أخذ ذلك عن بعض اليهود ، ويروى ابن الأثير أن أحمد بن أبى داود الذى كان يقول بخلق القرآن قد أخذ مذهبه هذا عن اليهود من مصدر يصل سنده إلى لبيد بن الأعصم اليهودى، وكان يقول بخلق التوراة . وابن عبد ربه يذكر أن فرقة الرافضة قد تأثرت أشد تأثر بتعاليم اليهود . ولاشك أن مسائل التشبيه التى أثيرت فى تفسير بعض الآيات القرآنية مثل ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ و ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ قد تأثرت بتفسير اليهود للآيات المماثلة لها فى التوراة . وقد آمن جماعة من الشيعة بالتشبيه .

وقد تأثرت كثير من المسائل لتى أثارها المتكلمون اليهود . ومن زعماء المتكلمين الذين هم من أصل يهودى "بشر المريسى" ، وهو من القائلين بخلق القرآن . أضف إلى ذلك أن كثيرا من حكم اليهود ونصائحهم قد غزت الأدب العربى ، وورد كثير منها فى عيون الأخبار والعقد الفريد . وقد أشار الأستاذ جويدى إلى أن كثيرا من الأخبار التى أوردها ياقوت فى "معجم البلدان" مأخوذ من كتب اليهود ، وأورد كثيرا من تآليف اليهود التى أثرت فى ثقافة العرب .

والحال كذلك فى **الديانة النصرانية** ، فقد كان لها ثقافة دينية أهمها الإنجيل ، وما لازمه من شروح ، وما أضيف إليه من قصص وأخبار . وقد تسرب ذلك كله إلى المسلمين ، كما كان الشأن مع اليهود تماما . وعنى مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى وبعض الحواريين ، كالطبرى والمسعودى .

وكما نشأ جدل بين اليهود والمسلمين، نشأ جدل أيضا بين النصارى والمسلمين. والظاهر أن الجدل قد حمى وطيسه بين المسلمين والنصارى بصورة أقوى مما كان بين المسلمين واليهود ، وذلك لأن اليهود فيما أرى عنصر يؤثر العافية ولا يوجه نشاطه إلا إلى النواحى المادية وما يتصل بجمع المال واستثماره. وقد دخل الشعر العربى كثير من ألفاظ النصرانية مثل الصليب والقربان والمسوح، وكانت الأديرة منتجع الشعراء يغشونها ويتشببون بفتيانها وفتياتها فى شعر دقيق.

هذه هى الثقافات الأجنبية التى طرأت على الثقافة العربية ،، وقد امتزجت بها امتزاجا قويا . وأطلق عليها كلها مؤرخو الأدب "**الثقافة الإسلامية العباسية**". وهذه الثقافة تباين من غير شك الثقافة الإسلامية العربية فى العصر الأموى.

وكان أكثر المسلمين إلماما بهذه الثقافات أهل الكلام . ومن أجل هذا كان المتكلمون هم أصحاب اليد الطولى فى المزج بين هذه الثقافات كلها كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين.

فلا مندوحة من القول إذن بأن اللغة العربية قد دخلتها عناصر لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل ، فاستلزم ذلك أنماطا حديثة من التفكير . فبعد أن كان العقل لاصقا بصور المادة لا يحيط إلا بما تعانيه الحواس، انسلخ بعض الشئ من هذه المادة، وتعلق بالأمور المجردة، فحلل أجزاء النفس وأحاسيسها وعواطفها، وطمح فيما فوق البشر ، فنظر فى المبادئ والنتائج والعلل ، وما شابه ذلك.

ومما يبعث على الإعجاب المقرون بالفخار أن نرى هذه اللغة البدوية قد فسحت فى رحابها حتى وسعت ثمار كل هاتيك القرائح .

الصراع بين العرب والموالى:

وبعد فإنى لأرى الضرورة تلح على فى أن أشير ــ فى لمحة خاطفة ــ إلى سمة كانت بارزة فى سماء العصر العباسى لتكتمل لنا الصورة الصادقة الكاملة له .. وتلك السمة هى **الصراع الذى كان بين العرب والموالى** ، وكان لهذا الصراع أثر بالغ فى الأدب والعلم والفن جميعا .

لقد اعتنق العرب الإسلام ورفعوا راية الجهاد فى سبيل نشره، ووقر فى أذهانهم أنهم من جنس لا يتطاول إليه جنس آخر ، وتملكهم شعور بالعظمة والسيادة والاستعلاء . فنظروا إلى غيرهم نظرة السيد إلى المسود ، وسموا من هو غير عربى "أعجميا". وكان العرب ــ شعبا وحكاما ــ فى العصر الأموى يسيرون على ضوء هذه الفكرة ، وكتب الأدب مترعة بالحكايات التى تدل على ذلك ، وبلغ من غلوهم فى ذلك أن الحجاج أمر ألا يؤم بالكوفة إلا عربى .

وهذه العصبية العربية العنيفة كانت تقابلها عصبية أخرى من أولئك الموالى المستضعفين ولا سيما الفرس ، وهم خلقاء أن يأكل الحقد قلوبهم ، لأنهم كانوا سادة فأصبحوا مسودين . وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم الغابر وعزهم التليد ، ويعتبرون حكم العرب لهم ضربا من سخرية القدر . ولذلك نراهم يهتبلون كل فرصة لإظهار ما يضطرم فى نفوسهم من الحقد والبغض ، ولكن بنى أمية كانوا يكبتون هذا الشعور أعنف كبت كما حدث لإسماعيل بن يسار مع هشام بن عبد الملك . بيد أن هذه النزعة التى أخمدها الأمويون قد اتجهت إلى دعاية خفية ضد بنى أمية ، وانتهت بقيام دولة بنى العباس كما هو معروف .

وقد عرف العباسيون للفرس عظيم فضلهم فى قيام دولتهم ، وصرح زعماؤهم بذلك فى خطبهم وفى أحاديثهم مثل داود بن علي وأبى جعفر المنصور .

ومن ذلك ندرك أنه قد أصبح للفرس فى دولة العباسيين شأن كبير ، ولكنهم لم يقضوا على نفوذ العرب تماما لأن الخلفاء عرب هاشميون ، وهم يفخرون بذلك ، ولذلك نراهم ينكلون بالفرس أشنع تنكيل يوم شعروا بطغيانهم كما فعل المنصور بأبى مسلم ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

ومن أجل هذا نرى كثيرا من عظماء الفرس يـنزعون إلـى الفخـر بالنسـب العربى والولاء العربى حتى أن أبا مسلم الخراسانى يصطنع نسبا عربيا فينتمى إلى سليط بن عبد الله ابن عباس وكذلك نرى إسحاق بن إبراهيم الموصلى على الرغـم من مكانته لدى الرشيد يهرع إلى خازم بن خزيمة وهو عربى وينتمى إليه معـتزا بذلك.

فليس من شك اذن فى أن العرب لم يذلوا كثيرا فى هذا العصر ، ولـم تـهوى عزتهم إلى الحد الذى يصوره المؤرخون . وكل ما حـدث أن حركـة العصبيـة العربية قد دفعت بحركة أخرى فارسية ، وأن الصوت الخافت الذى كان يهمهم بـه إسماعيل بن يسار قد انطلق من عقاله حرا قويا.

وكان يتزعم هذه الحركة الفارسية جماعة على رأسهم **بشار ابن برد** الذى كـان يفخر بالعجم ويتبرأ من الولاء العربى ويدعو الموالى إلى تركه ، ويحقر العـرب ، وكان يجهر بذلك أمام المهدى فلا يعاقبه كما عاقبه هشام إسماعيل بن يسار حينمـا فخر بأجداده الفرس . وحذا حذو بشار فى ذلك شعراء الموالى مثـل ديـك الجـن والخزيمى والمتوكلى " وكان من ندماء المتوكل".

مهما يكن من شئ فقد قوى نفوذ الفرس فـى الدولـة العباسـية ، وأصبحـت الاستعانة بهم فى أمور الدولة أمرا مقررا ، بعد أن كان استخدامهم فـى العصـر الأموى على ندرته يقابل بالامتعاض ، ويقول الجاحظ : "إن دولتهم" أى العباسـيين "أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان عربية أعرابية" . ويذكـر السـيوطى "أن المنصور أول من استخدم مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب" ، وحذا حـذوه الخلفاء من بعده "فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها" كمـا يقـول المسعودى.

وبلغ من نفوذ الفرس أن حبب بعضهم إلى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها فى العراق وتكون حجا للناس ، فبنى بناء سماه "**العتبة الخضراء**"، وقطـع الميرة فى البحر عن المدينة ، فغضب أهل الحجاز ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقـد أفتى لهم بذلك الأمام مالك بن أنس ، فعذبه والي المدينة ، فلما تولى المهدى "أكـرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالا عظيما واتخذ حرسا مـن الأنصار".

وقد قوى نفوذ الفرس فى زمن الرشيد بفضل البرامكة ، واتسع نفوذهم فى عهد المأمون لما تغلب على أخيه الأمين بفضل مناصرته له ، وعد انتصاره انتصـارا للفرس على العرب .

وزاد هذا النفوذ أيضا أن الخلفاء العباسيين كانوا يتعصبـون للإسـلام ، ولـم يتعصبوا هذا التعصب للعروبة . وساعد على ذلك أن أكثر هؤلاء الخلفـاء كـانوا مولدين ، فلا عجب إذا جهر الفرس بذم العرب والتعصب لجنسهم ، ولا عجـب أن

يصبح هذا مذهبا خاصا لهم يعرف "بالشعوبية" . وكان الخلفاء العباسيون لا ينكرون منهم ذلك ، بل أننا نرى المأمون يدنيهم منه ، فيجعل **سهل بن هارون** المعروف بمقته للعرب يتولى الهيمنة على خزائن الكتب.

وقد دأب الشعوبية على أن يسلكوا كل سبيل يوصلهم إلى تحقير العرب والازدراء عليهم. ومن ذلك التأليف فى "**مناقب العجم وفى مثالب العرب**". ومن أشهر من فعلوا ذلك **علان الشعوبى**، فقد وضع كتابا فى ذم العرب اسمه "**حلبة المثالب**"، وهو من أشد الكتب التى هتكت العرب. ومنهم سهل بن هارون الذى أشرنا إليه والذى يقول فيه ابن النديم:"كان حكيما فصيحا شاعرا، فارسى الأصل، شعوبى المذهب، شديد العصبية على العرب، وله فى ذلك كتب كثيرة"، وبلغ من شدة سهل للعرب أن ألف رسالته المشهورة فى البخل، وفيها يقلب الكرم رذيلة والبخل فضيلة، لأن العرب كانوا يمتدحون بالكرم ويعتبرونه من أكرم صفات الإنسان، كما اشتهر الفرس بالبخل وبخاصة أهل خراسان.

ومن ألد أعداء العرب "**الهيثم بن عدى**"، وكان من جلساء المنصور والهادى، وله كتب كثيرة فى ذم العرب، وكذلك **أبو عبيدة معمر بن المثنى** المشهور بشدة كرهه للعرب، وقد صور ابن قتيبة كيف كان هذا الرجل يعمد إلى سرد مفاخر العرب، ثم يتهكم بها أشد تهكم، ويقارن بين أشرافها وملوك الفرس، وقد وضع عدة كتب فى ثلب العرب. وهناك غير هؤلاء كثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم.

وهذه الكتب التى وضعها الشعوبية فى ذم العرب لم يصلنا شئ منها، وإنما وصلتنا نتف من أقوالهم وآرائهم فى الكتب الكبرى. ولم يكتف الموالى بتأليف هذه الكتب، فكانوا يضعون القصص فى التشنيع على العرب، ويفسدون الشعر بإضافة النص إلى غير قائله، فيذيع بين الناس، كما كان يفعل **حماد الراوية وخلف الأحمر**.

وهكذا نرى أن العرب قد واجهوا حربا شعواء زعزعت من مكانتهم، فشغلوا عن التعصب القبلى الذى تأججت ناره فى زمن بنى أمية، وهبوا جميعا يدرءون عن أنفسهم هذه الحرب العنيفة، ولكنهم غلبوا على أمرهم، وبدأوا يحيون فى المدن العراقية حياة اجتماعية تشبه حياة الفرس، ونشأ بينهم لون آخر من التعصب هو التعصب الإقليمى. أعنى أن عرب العراق يتعصبون للعراق، وعرب الحجاز يتعصبون للحجاز .. وهكذا . واشتطوا فى هذا التعصب البيئى ، فتميم البصرة تفخر على تميم الكوفة .. وهكذا .

ولاشك أن هذا التعصب البيئى قد أحدث نهضة علمية خصبة فى جميع العلوم . فمدرسة البصرة فى النحو تناهض مدرسة الكوفة ، ولكل منهما أنصار . ولما ظهرت مدرسة بغداد ناهضت المدرستين الأوليين . وكان الفقيه العراقى ينازع الفقيه الحجازى ، ونشأ عن ذلك مذهب الرأى ومذهب الحديث .

وقد أورثتنا هذه العصبية كثيرا من الأخبار التى وضعت فى مزايا البلدان وعيوبها ، وفى طباع سكانها وأخلاقهم . ونقرأ الكثير من ذلك فى كتاب "عيون الأخبار".

وينبغى أن أذكر أن علماء الموالي ممن شرح الله صدورهم للإسلام قد أنكروا من بنى جنسهم هذا التحامل البغيض ، فهبوا يردون عليهم بكل ما أوتوا من قوة ، وعلى رأس هؤلاء ابن قتيبة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر نفوذ الفرس فيما يلى:

١- ملئت قصور الخلفاء بالموالي يستخدمون فى أعمال شتى .

٢- أصبحت المناصب الكبيرة مقصورة على الفرس تقريبا ، وأهمها الوزارة .

٣- تغلغلت النظم والعادات والتقاليد الفارسية فى الحياة العباسية من جميع نواحيها . **ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين:** "لست أنكر أن الفرس قد أثروا فى الحياة العربية تأثيرا شديدا ، ولكنه فى كثير من الأحيان تأثيرا سيئ جدا . وحسبنا أن الفرس هم الذين أدخلوا على العرب **سياسة الحكم المطلق** ، وجعلوا قصور الخلفاء فى بغداد أشبه بقصور الأكاسرة فى المدائن . فقد تعلموا من الفرس طرائقهم فى الأكل والشرب واللبس وتأثيث القصور واللهو والعبث" .

ولعل أظهر أثر للفرس فى نظام الحكم العباسى "**الوزارة**"، وبجانب الوزارة موظف آخر اسمه "**السياف**". وذلك مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة، ولم يكن معروفا فى الدولة الأموية. وقد نقل العباسيون كذلك عن الفرس نظام البريد. يضاف إلى ذلك أن الثقافة الفارسية انتشرت أعظم انتشار كما بينا.

القرن الثالث الهجرى أزهر عصور العلم:

ولاشك فى أن دراستنا لهذه الفترة من جميع نواحيها تعيننا على فهم الظواهر السياسية والاجتماعية والعقلية التى برزت فى القرن الثالث الهجرى، لأن كل عصر يسلم إلى العصر الذى يليه ويعتبر أساسا له. ولا أجد قولا جامعا فى وصف هذا العصر من نواحيه المختلفة خيرا من هذه العبارة التى قدم بها الكاتب الإنجليزى "**تشارلز ديكنز** Charles Dickens" قصة المدينتين "عن الثورة الفرنسية، يقول فيها:" كان ذاك العصر خير العصور، وكان كذلك شر العصور. كان عصر الحكمة، وكان عصر الحماقة. كان زمن اليقين، وكان زمن الشك. كان زمن الضياء، وكان زمن الظلماء. كان ربيع الأمل، وكان شتاء اليأس. كان فى الغاية القصوى إما من الصلاح، وإما من المفاسد".

تلك العبارة فى الواقع تصور لنا تصويرا صادقا القرن الثالث الهجرى، ويخيل إلينا أنها تصف عصرين مختلفين، لا عصرا واحدا.

كانت الدولة العباسية مشرق العلوم والمعارف، وكانت دولة العلم والتدوين والترجمة وظهر فيها فطاحل العلماء الذين نبغوا فى كل فن.

وقد تركزت العلوم فى القرن الثالث الهجرى. وتمثلت المعارف التى ترجمت، واتجه العلماء إلى ناحية التخصص والإتقان بسبب اتساع آفاق العلم، فظهر المحدثون واللغويون والمشتغلون بالنحو والصرف، والمتخصصون فى رواية الأخبار. ومهما يكن من شئ فلا جدال فى أن القرن الثالث الهجرى كان من أزهر عصور الإسلام من الناحية العلمية ، فقد تم فيه نمو علوم الثقافة الإسلامية كلها ، ففيه أتمت المذاهب الأربعة فى الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث ، وما من علم قديم أو حديث إلا له أعلام نابغون فى هذا القرن خاصة فى علوم اللغة والأدب والنحو والرواية ومن الأعلام المشهورين فى هذا القرن **ابن السكيت وابن دريد وابن الأخفش وأبو حاتم السجستانى وابن راهويه وأبو بكر الصولى** وغيرهم ممن لهم درجات عالية فى هذه العلوم .

ومن مؤرخى هذا القرن من العرب وجغرافييهم **البلاذرى والبلخى واليعقوبى والطبرى وابن البطريق** ومن الفلاسفة **الكندى والفارابى** ومن الأطباء **الرازى وابن ماسويه** وممن برزوا فى الرياضيات **الخوارزمى** واضع الجبر ولم يكن الأمر مقصورا على نبوغ هؤلاء الأعلام ، بل كانت الثقافة الموسوعية قسمة شائعة بين الناس جميعا ، يشارك فيها خاصة الناس وعامتهم وكلهم يحضرون مجامعها ومناظراتها وقد شاع ذلك بينهم شيوعا كبيرا .

أهم المراجع

ابن النديم	:	الفهرست. روائع التراث العربى. بيروت.	
ابن أبى أصيبعة	:	عيون الأنباء فى طبقات الأطبـــاء. نشـــر دار الحيـــاة. بيروت.	١٨٨٢
أحمد أمين	:	ضحى الإسلام. مكتبة النهضة.	١٩٥٦
البلاذرى	:	فتوح البلدان. القاهرة.	١٩٣٣
البيهقى	:	تاريخ حكماء الإسلام. تحقيق محمد كرد على. دمشق.	١٩٤٦
الجاحظ	:	البيان والتبيين. تحقيق السندوبى. القاهرة.	١٩٣٦
جلال مظهر	:	مآثر العرب على الحضارة الأوروبية. الأنجلو.	١٩٦٠
ابن خلكان	:	وفيات الأعيان. القاهرة.	١٣١٠هـ
الدوميللى	:	العلم عند العرب	
السيوطى	:	الأشباه والنظائر. جـ٣.	
ابن قتيبة	:	عيون الأخبار.	
ابن القفطى	:	أخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة.	١٣٢٦هـ
أنور عبد الواحد	:	قصة الورق. دار الكتاب العربى.	١٩٦٨
جميل المدور	:	حضارة الإسلام فى دار السلام. بيروت.	بدون
جوستاف لوبون	:	قصة الحضارة.	١٩٦٥
زكريا إبراهيم	:	أبو حيان التوحيدى أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدبـــاء. أعلام العرب.	١٩٦٤
صاعد الأندلسى	:	طبقات الأمم. القاهرة.	بدون
فريد رفاعى	:	عصر المأمون. دار المعارف.	١٩٦٧
فيليب حتى	:	تاريخ العرب	
محمد غلاب	:	أخوان الصفا وخلان الوفا. دار الكاتب.	١٩٦٨